قصة

فزع

غدير عبد الكريم العقيلي

فـــاءٌ وغيـــن

غَـدِير عَبد الگـرِيـم العَـقِـيلـي

يمان بوك لنشر الكتيبات الإلكترونية
Book Yaman to Publish electronic brochures

✦ @جميـع الحُقـوق محفُوظـة لدىٰ المُؤلِـف.

✦ العنـوان: فـاءٌ وغيـن.

✦ المؤلف: غَـدِير عَبد الكَـرِيـم الـعَـقِيلـي.

✦ النـوع: قِصةٌ قصيرة.

✦ عدد الصفحـات: 30 صـ.

✦ تدقيق لُغوي: آمال العريقي.

✦ تصميم الغلاف: نعمة الخالد.

✦ تنسيق داخلـي: يَمـان المَجـد.

https://t.me/EUFHORIA_2

Inst:yaman_2255

يُمنع اقتصاص أي جزء من هذا الكتيب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بأي شكل إلا بموافقة المؤلف.

إهداء:

إلى من خيم الظلام في صدورهنَّ، وغارت عليهنَّ نجوم الفلك، وغمر الديجور بطاح أرواحهنَّ، إلى مَن عصفت بهنَّ رياحُ الحياةِ الراعفة، ومن ضجَّ الحزن مسامعهنَّ وتصاعدت أصداؤُهُ بين وجوههنَّ الوضاءة، إلى تلك الأعينُ المتعبة التي تخالُهما قد انطفأت منذُ زمنٍ، إلى مَن أخذنَ مِن صخور الجبال العناد، ومِن تربة الأرض الخصب والليونة.

المقدمة:

صدحَ صداها حتَّى جلجل أرجاء العيادة وهي تهتفُ قائلة:

"أرجوكِ هلْ لكِ أن تُساعديني كي أجهضه فأنا خائفةٌ من أن يُقتل أمام عينيَّ كما حدث بإخوته سابقًا!"

هذا ما توصلت إليه غيم في طورٍ ينهشُ قلبها كما النارُ تلتهم الهشيم، تصطبرُ على أعباء الحياة القاسية، بلا والدين، وحدها في دنيا موسورةٌ بالألم، تبكي في الليل وتنتصب في النهار، تحلمُ بحضن دافئ وكلمة حنونة، تطلب مِنَ السماء بأن تُزيلَ عليها قسوة القدر، وأن تأتيها بأمانيها كالمطر، لكنَّها تعاظم وتُآزر عبء الحياة بكلِّ شكيمة ورباطة جأش، تبتسم رغم الدموع التي تنحدرُ على وجنتيها، وتحلم بيوم العدل والإنصاف، فلتكن لها أيُّها الأخ يد العون والأمد، ويجب أن تُريها لطفُ الاحترام واحتضنها فقدرها ليس في يتامى الظلم بل في قلوبٍ تجدُ الأمان بألفتها.

صدحَ صداها حتَّى جلجل أرجاء العيادة وهي تهتفُ قائلة:
"أرجوكِ هلْ لكِ أن تُساعديني كي أجهضه!"

أجلسُ كالعادة بجانب طبيبة نسائيَّة في عيادتها، فإذ بفتاة تدخل مهرولة، كانت في الثامنة عشر من العُمر، تُريد القيام بعمل فحوصات وعمل تصوير بالموجات ما فوق الصوتيَّة؛ لتتأكد مِن سلامة الرحم لديها.

وقفتُ مندهشة مِنَ الأمر وعلامات الاستفهام تنطُ فوق رأسي، أُحدث نفسي ما بالُ هذه الفتاة العزباء في عُمرٍ كهذا، وهي تسعى لعمل مثل هذه الإجراءات!

حدثَ أنِّي اكتشفتُ لوهلة أنَّها ليست عزباء، بل قد تزوجت منذُ ثلاثة أعوام، إذ أنَّ عُمرها كان في ذلك الحين خمسةَ عشر عامًا.

تقدمت الفتاة، أخبرتها بأن تتوسط على السرير كي نقوم بالبدء في العمل، وبدأنا بعمل أشعةٍ لها، لنعلم حينها بأنَّ هُناكَ قطعة تقطنُ في أحشائها، وكان ذلك جنيناً لم يمر عليه سوى ثلاثة أسابيع.

أستديرُ بكُرسيي وأرمقها بنظرةٍ، تبتسمُ عيناي قبل أن ينطق فمي، جازمة بأنَّها ستسعد بخبرٍ كهذا، توجهت نحوها قائلة:

يُتمم الله لكِ على خير، أنتِ حامل.

لكن حدثَ ما لم يكن في الحسبان، إذ أسمعُ حينها بصدى يصدحُ بصرخةٍ مدوّية فور قولي، ممَّا جعلني أقفُ على قدميَّ وأثبتُ كالوتد، لأجدُ عيناها تترقرقان بالدموع وإذ بشفتيها تنطقُ برجاءٍ بالغ:

-أرجوكِ هلْ لكِ أن تُساعديني كي أجهضه!

التفتُ نحوها بتعجبٍ عَرِم!

لم أستطع استيعاب أيَّة كلمةٍ ممَّا تفوهت به، أغمضتُ عينيَّ بشدَّة آملة أن يكون مجرد هاجس، طلبتُ منها إعادة ما قالته للمرة الثانية، قد أكون سمعتُ بشكلٍ خاطئ، لترجوني مجددًا أن أُساعدها على إجهاض جنينها.

أتساءل مع "وجدي" ما الذي يحدثُ هُنا؟

هل فقدت صوابها؟

أم أنَّ القسوة قد بلغت ذروتها، لتطلب طلبًا خبيثًا كهذا؟ انفعلتُ كثور هائج رآها كالرداء الأحمر، وصرختُ في وجهها قائلة:

-يا لخبثك يا هذه!

يا لجهامة قلبك!

أنتِ لا تستحقين أن تُصبحي أمًّا البتة! أي أمومة هي التي تستحقينها في حين تودّين إجهاض جنين لم يبصر النور بعد، بل لم يذق أيَّة حركة داخليَّة.

انفعلتُ بشكلٍ كبير جدًّا، لأنَّ شطرًا من الأنام يحلمُ بطفلٍ صغير يوسر عليهم يومهم بالبراءة والحبّ، ويضفي عليهم بعضًا مِنَ الضحكات، والأحضان الناعمة الدافئة، في حين أرى أمامي الآن أُمًّا تُريد قتل طفلها قبل أن تدبَّ فيه الروح، تريد وأده لا في حفرة هذه الدنيا، بل وهو ما يزال في حفرة النمو خاصتهم.

انتابتني رغبةٌ في الصُّراخ مرةً أخرى، لكن ما أوقفني هو رُزوخ الأمِّ عند موضع قدميّ، لتبدأ مراسيم الاستعبار والعويل كالقسيس، بطريقةٍ جعلت القلب ينفطر لفرط لوعةِ ما يرى.

أيُّ سرٍّ غامض هذا الذي تخفيه؟ وأيُّ حزن عارم ولّد هذا العويل المدرار بدموعه؟ وللحظة شعرتُ بشيء أجهله، شيء فجع قلب هذه الأمّ وأراها من عالمنا ما جعلها تركع خاشعة أمام آلامها التي لا تُطاق، والتي بلغت حدًّا فجر معها كلَّ ما هو حبيس في داخلها، فإذ بمشاعر تسكب عنيفة، بصراخ وعويل ودموع تتقافز حرَّة بعد سجن طويل كما بدا.

وأمام وجومي ووقوفي أمامها، فطنت الأمُّ لحالتي، وأدركت ما يجول من أسئلة في داخلي، لتبدأ الأم بسرد سيناريو قصتها التي تتأرجحُ بين ألمٍ وعذاب، بين ظُلمٍ وجور، يخيم الديجور على حياتها حيثُ أسدل ستاره في ذلك الحين تحديدًا، عندما وطأ جُثمان أبيها بين أحضان القبر.

قالت الأم والتي تدعى "غيم" محاولة تفسير الأمر وتبرير دافع الجرم:

- أنتِ لا تعلمين شيئًا، لذا لا تحكمي عليّ كما تشائين، أنا خائفة من أن يُقتل أمام عينيَّ كما حدث بأخوته سابقًا!

ما الذي يحدثُ هنا هل اختارتِ الأحداث أن تُصيبني اليوم بالجنون!
هنا أمٌّ تُريد أن تقتل طفلها كي تُنجيه مِنَ القتل لاحقًا، ما هذه القوانين؟! أهو كاختبار قدريّ صعب بين قتل رحيم لا يشعر به المقتول، وبين قتل تعذيبيّ لا تريده لكنَّها بعدم قتلها الحاليّ تشارك فيه؟
وما هذا الظلمُ والجور اللذان تعرضت له هذه الأمّ؟!
إنَّ الإنسان في لحظة ما وأمام شعور شخص آخر، لا يسعه سوى أن يفعل ما يخفف عن هذا الشخص الماثل أمامه، وكثيرًا ما يكون التصرف داخليًّا مُحركًا بطبيعتنا الرقيقة والشاعرة بمعاناة الآخر.
احتضنتُ يديها التي كانت ترتجفُ بشدَّة، وأجلستها على المقعد المقابلُ لي ثُمَّ قلت لها متسائلة:
-غيم! ما الذي يحدثُ؟!
- أنا فتاةٌ يتيمةُ الأب وعجيةُ الأُمّ، أعيشُ تحت ظلِّ أخوتي الذين أجزمُ بأنَّهم ليسوا كذلك!

لم يكن لي سندٌ أستندُ عليه، أو نورٌ ينيرُ فيرشدني إلى الطريق الصحيح، لم أجد من يُدافع عنِّي عندما تَجلدُني الأيَّام، لا أحد هُنا كي يُهديني عناقًا حين أكون خائفة، لم أسمع تلك الكلمات "أنا هنا لا تقلقي!"

كُنت أُريد هذه الكلمات فقط، من يُشعرني بحقيقة الأمان، لكنها كانت من أقصى الأمنيات التي لا تتوافق معي كي أعثر عليها! تتوالى الأيَّام وأنا أترنحُ بين لوعةٍ ولذعةٍ، مغلوبة على أمري، فالذي جعلني أصمدُ وأنتصب هو أنَّني فقط كنت على أملٍ وأُمنية بأن يأتي إليَّ ذاك الفارسُ الأشوس العريق، مَن سيُنقذني مِن هذا الثقب الأسود الذي وقعتُ فيه، من سيُعيد لي شغف الحياة كالبداية، تلك البداية التي تتفتح فيها أزهار الحياة، وتزهو ألوان بهجتها، بداية بريئة لم يعرف العالم والكائنات فيها بعد مصالحها وحقيقة ما يجري، كنت على أمل أنَّ ذاك الفارس سيعيد لي حياتي، نعم حياتي، فأنا الآن عبارة عن جُثة خاوية على عروشها، لا يدركُ المرء أنَّني حيَّة إلَّا عند تَحركي، سُلبت منِّي حقوقي ومنها حقُّ التحدث!

فأنا تلك المكلومة المغلوبة على أمرِها، وليس ثَمَّ مِن حديث يحقُّ لي التحدّثُ به إلَّا حديثي مع ذاتي.

أنظرُ الى الشمسِ تنحدرُ من مَغيبها، تُخلّف وراءها ألوانًا مُختلفة، أتأملُ هذا الهلال الوليد الذي انجبته ألوان الغسق حيثُ بدأ يحبو على استحياء في لُجّة السماء، وما تزال مُولياتُ الضياء تُغالبُ سواده، وبينما يسري النسيمُ مخترقا خلايا جسدي الحسية، إذ بصوتٍ يتخلل مسمعي يقول:

-أهلًا أهلًا بمن زارنا حللت أهلًا يا نسب!

ماذا نسب؟!!

ذهبتُ مهرولة أستلهبُ الكلمات بخفّة، لقد كان وغدًا من أصدقاء من يُطلقُ عليهم بأخوتي؛ فأنا لم يكن يروقنِي أخوتي ولا أصدقاؤهم، فهم مجموعة يملأُها الفسادُ الأخلاقي والبعد عن الله والخُبث والقساوة والسماجة، لا أدري ماذا يُطلق عليهم فكلّ مفردات اللغة بريئةٌ منهم.

خطواتُ أخي تحمله نحوي، وأرضُ المنزل تطوي مسافاتها كي يصل إليّ، ويزفُ لي خبر تشييع جثماني الحيّ إلى ذلك الوغد اللعين، وأيّ لعين سيكرم جثمانه؟

"غيم غيم غيم" يعلو صُراخه أرجاء المنزل حتَّى أجبته قائلة:
- نعم، ماذا تُريد!
- تجهزي الآن فقد جاء غيث لخطبتِكِ وهو يُريد أن يراكِ الآن.

لم أجرؤ على النطق حينها بكلمة "لا" مَن أنا كي أتجرَّأ وأنطق بها، وددتُ حقًّا أن أرفض ذلك المدعو بـ "غيث" فأنا لا أُريد العيش في الجحيم ذاته مرةً أخرى، فقد أصبحتُ ثملة ممَّا قد تجرعته كثيرًا من قِبل أخوتي، ولكن ككلِّ مرة لم يكن القرار في يدي، والإنسان إذا أمتلك قرار الآخر، كثيرًا ما يوسعه إذلالًا وتبريحًا، فما بالك إن كان هذا الإنسان مستضعفًا؟

تمّت خطبتي منه رُغمًا عنّي، وتمَّ أيضًا تحديد موعد زواجي منه، بعد هذا اليوم بأسبوعين فقط.

استغرقتُ في وحدةٍ عميقة، أصبحتُ ألوذُ في أوساطِ روحي وكأنّي غريبٌ عن هذا الكيان الذي لا يُليقُ بقلبي المكوث فيه، من بين كلّ

كتاباتي وأصدقها تلك التي أرشقُها وأنا بين صراع الكلمات والأفكار ودماثة الأيَّام، تلك التي تصقل وجمي، وتشرحُ خوفي وضعفي، أيّامٌ مرت توسرها التباريك والتهاني والكُلّ سعيدٌ بهذا الحدث الذي لا أعلم ما أُسميه، يقتربُ موعد زفافي وأنا أُعاني من مشاحنة باتت تقتلني، وتُشتت أفكاري، جرّدت منّي إيماني الذي أجزمته بأن أستعيد نفسي من جديد، فإذا بي أراني أهوي إلى الدرك الأسفل مِن الجحيم مرة أخرى، أصبح مزاجي يتقلّبُ وقلبي مكسورٌ وروحي مكلومة، لم أجيد سوى الكتابة، فببعض الأسطر التي أكتبها أخيط جروح روحي، وكان

الحزنُ يكتب أسطره التي تتمدد بلا نهاية، وبدأ يغزوني ليستوطنني من جديد ولكن هذه المرةُ لا حُرّيّة منه ولا مفر.

تمَّ زواجي وأنا أُحاول أن أغالب ما في قلبي من ألمٍ؛ فازداد ألمًا إلى ألمي وحسرةً إلى حسرتي، شجى كاد يقتل أوصار قوتي دون أيّ رأفة لولا قوتي التي أُحاول التظاهرُ بها عيانًا أمام الخلق.

مرّت أيَّامُ الزفاف ثقيلة على روحي، وموسورةٌ بالكمد، شيعتُ فيها جنازةُ روحي لأدفنها أكثر، وكما توقعتُ لقد أُخذت إلى الجحيم لا أكثر، لكنّه جحيم من نوع آخر، جحيم لا يكون السجين حرًّا طليقًا داخل حدوده على الأقل، بل هو جحيم منعدم الشغف ومعزز بكراهيّة الآخر.

استقبلتني والدةُ زوجي بنظراتٍ ساخطة تكادُ تَحرقني، لكنّي لم أعرها أيّ اهتمام، وأخبرتُ نفسي بأن تألفَ المشهد فهذا سيكون سجنها الجديد، وهؤلاء هم الجلادون فيه.

مرّت أيّامي والوضعُ كما هو لم يتغيّر سوى المربع الجُغرافي، ما زالت حقوقي مسلوبة ولا أرى أيّ حقوق لي مُطلقًا، هكذا مرّت حياتي كأحداث رواية تُخْمة وضجرة، شعرتُ حينها أنّي أخونُ نفسي؛ فكُلُّ شيء صامت وكلُّ شيء محطم، حزنٌ من نوعٌ آخر، وحيدةٌ غريبةٌ كئيبة، تيه وخوفٌ وتعب، لا مسراتٌ ولا فرح، حقًّا أصبح كُلُّ شيء باهتًا ولا أكترثُ لأيّ شيء يحدث.

كُلُّ ما عليّ فعله هو التنظيف والطهو والاعتناء بالمنزل، لا يسمح لي بالارتياح أو النوم في النهار، لا يحقُّ لي المشاركة في القرارات وليست لديَّ السلطة في فعل أيِّ شيء حتَّى بنفسي، كنت عبدةٌ مأمورة فقط، كأسيرة من معركةٍ ما، وفي فترة ما بدأت أشعرُ بالتعب والإرهاق وكنت أشعر حينها بصداع يفتكُ رأسي وغثيان يُصاحبهُ ألمٌ مستمر أسفل البطن، لم أُخبر أحدًا بذلك حتَّى استمر الوضع إلى أسبوعين متتاليين، فجأة لاحظني "غيث" وأنا أهرولُ إلى دورةِ المياه أتقيأ.

بحزم وصرامة قال متسائلًا:
-منذ متى وأنتِ تُعانين من ذلك؟

أجيبه وأنا أتلكأُ خوفًا، قائلة:
-تقريبًا منذُ أسبوعين.

أتبعني قائلًا:
-هيا أرتدي ملابسكِ.

لم أناقشه بل ارتديت ملابسي، وجرجرت معه، فتوجهنا معًا إلى المستشفى، وقمنا بعمل بعضٍ مِنَ التحاليل، ليتبين لي أنَّ كلَّ تلك الأعراض لم تكن سوى علامات وأعراض لحدوث حمل، شعرتُ بفرحةٍ عارمة حين علمتُ بذلك، لم أكن أعلم بأن تلك الفرحة ستقتلُ روحي، وتُقتل قبل أن ألمسها!

مرَّت أيَّام الحمل عصيبة وشاقة، حتَّى ولدت بمجهودٍ كبير وتعب شديد، كَبر سنّي ونحلت قامتي، لم أكن مهيأة للولادة بشكلٍ طبيعي، عانيتُ مِنَ المخاضِ خمسةَ أيّامٍ متتالية.

لم يأتوا أخوتي حينها لزيارتي ولم يُكلفوا أنفسهم حتّى الاطمئنان عليّ، وكذلك "غيث" لم يكترثُ لأمري كان يذهبُ بي إلى المستشفى، لألد بعافية أو لإجراء عمليةٍ جراحية لأخرج البدر الذي سكن أحشائي وظلّ يركل بقدميه الصغيرتين يهمُّ بالخروج؛ ليقُرّ عينيّ برؤيته،

لكن الدمامة والشناعة فعلت شيئًا غير ذلك، حيثُ قام "غيث" وأخذني الى منزلِ أخوتي ورماني لديهم قائلًا:
خذوها إلى حين تلد أعطوني الطفل فقط.
لم أستوعب ما قاله ولم أفهم ما يقصده أيضًا، أدركت الأمر فيما بعد، أن هُنالك مشكلة حدثت بينهم وبين "غيث" وطلبوا منه إعادتي إليهم ولم يُعارض بل رماني عندهم وطلب أخذ المولود بعد الولادةِ مباشرة، زاد

الحزن وتفاقم في قلبي وشعرتُ بفرحتي تُسلب مرةً أخرى منِّي، وكذلك سأُحرم منها دائمًا.
لم يكن ما يهمني الآن حريتي وحرية قراراتي، ولا عن التعامل الحيوانيّ معي، بل المولود القادم الذي يواصل الإبحار والسباحة في بطني.

تلبدت الغيوم الدكناء في فضاء روحي المكلوم، تتقاذفها الرياحُ الهوجاء، وتُسقط الأوراق الصفراء على الغبراء، تبرد مشاعري وتهطل أمطار من الدموع وترحل عصافيرُ وجنتي عن البيادر، ساد آنذاك صمتٌ وجداني، وتكفهرت سفوح عينيّ، تعتري ملامحي من نظارتها؛ فلا صداح آنئذٍ ولا فوحُ عبير.

كل تلك الأحداث لم تكن تزيدُ الوضع إلَّا سوءًا فقط، أنجبتُ بدرًا أضاء سماء جناني بنوره وملأ أركانها بعويل بُكائه الأوَّل، لقد أنجبته بشقِ الأنفس كدت أموت عندي ولادتي به، أردتُ أن آخذه بين أحضاني وأقرُّ عينيّ به، كان أملي بشروق شمسي وبزوغ فجري من

جديد، فهو كان سيكون الرفيق الوحيد، والحضن والعناق الدافئ الذي أحتمي به من قسوة التعامل، وإن كنت سأحميه حتمًا قبل أن أحتمي به شعوريًّا.

لكن للأسف الشديد حُرمت من ذلك، سُلب حقٌّ آخر، سُلب حقُّ رؤية بدري الذي أطلقته أحشائي ليضعوه في غرفةٍ مجاورة لغرفتي، ويُغلقوا الباب عليه وهو في الداخل، أسمعُ نحيبه المبحوح وأوصارُ قلبي تتمزّق.

وبينما يتمزق قلبي وتتمزق معه روحي إذ أسمعُ أحد أخوتي يجري هاتفًا مع غيث قائلًا له:

يا للخيبة إنَّها فتاة!

هيا فلتأتِ لأخذها.

خاطبتُ نفسي قائلة: إنّها فتاة ولا بُدَّ بأنَّها خائفةٌ مثلي.

جنَّ جنوني وبدأت أطرقُ الباب وأركله بيديَّ ورجليّ؛ كي يُفتح لي لأرى طفلتي،
ولكن لم تُساعدني قوتي في ذلك، حيثُ إنِّي تلقيتُ ضربًا مُبرحًا من أخي، عندما جاء دمدم في وجهي واهتاجَ فهجم عليَّ هجمة كالبرقِ المرعِد حتَّى فقدتُ وعي.

الرياحُ تعصفُ مِنَ الغرب إلى الشرق شديدة عاتية، تسوقُ الغيم أمامها بسياطٍ مِنَ البروق وتُزجرها بهزيمٍ مِنَ الرعد الغاضب العنيف.

يلتجئً الكلبُ إلى حائطٍ يعصمه من الماء، وأخذ يرتعد ارتعاد المغرور ويُطلق بصوته عنان السماء صوتًا مستطيلًا حزينًا زاده ديجور الليل لوعةً وحُزنًا.
تسكتُ الطيور في أعشاشها فوق الأشجارِ، ترسلُ نعيبًا مؤلمًا وتنقبض له النفس وتضطرب الأعصاب وليلٌ يوحي بالموتِ والفجيعةِ والدمار.

أفتحُ عينيَّ بشدَّةٍ حيثُ أجدني مربوطة بحبل ملفوف حول قدمي ومتصل بالنافذة، شعرتُ في لحظتها أنِّي كالحيواناتِ تمامًا فلا شيء يُميّزني عنها غير شكلي وهيئتي، فأنا خُلقت فقط لأعذّب وأكون عبدة لهؤلاء.

تمرُّ عقارب ساعات ذلك اليوم طويلة وقاسية، وأنا أسمع صُراخ طفلتي وانتحابها الذي لم يتوقف لساعةٍ على الأقلّ، لكن وفي اليوم التالي توقف البكاء، فتدخل زوجة أخي عليّ وهي تحتضنها وإذ بي أهرول إليها بكلِّ لهفةٍ واشتياق ولكن ما إن وصلتُ إليها كي أغرسها بين أحضاني، فإذا بأخي يأتي ويدفعني بكلتا يديه شديدتا القوّة، ارتطمُ بعدها على جدار الغُرفة وأهوي على الأرض، إنّه أخي جاء كالثورِ الهائج يُهاجمني ويختطفُ طفلتي منّي، حينها تكون طفلتي تنازع الموت وتلفظُ أنفاسها الأخيرة، لم أحتمل هذا المنظر وخرجتُ أركضُ بعدهما على أملٍ أن يتم إنقاذُها، اجتمع الاطباء لرؤيتها يتهامسون وينظرون إلى الساعة ويسجلونها، فخلَّ الصمت بينهم، لم أكن أعلم ما الذي يفعلونه؛

فصرختُ بهم قائلة:

- ليس هذا وقت النظر إلى الساعة أرجوكم أنقذوها أوَّلًا!

فلم يكن منهم إلَّا أن أخبروني أنّها قد فارقت الحياة ولا أمل في عودتها.

أرتعد كلّ جسدي عند سماعي لخبرٍ كهذا، رعشةٌ خفيفة سرت بين أوساط خلايا جسدي لأتبعها بصراخٍ كادت أن تنفض له جدران تلك الغرفة، ليتوقف الصراخ بصفعةٍ من زوجة أخي التي وجدتها منتصبة أمامي تقول: ما الذي يحدثُ لكِ؟ إنَّها مجردُ طفلة.

لم يعلموا أنَّ تلك الطفلة كانت أملي في الحياة وحبلُ انتشالي من قبو الديجور الذي سكنتُ به غصبًا عنّي، كانت سببي الوحيد للكفاح كي أعيش، كانت كفيلة لأن تحول خريفي إلى ربيع، ولكن هذا الحبل انقطع أمامي، ماتت طفلتي بين أحضان أيديهم وأحضان قلبي المكلوم وعينيّ الموسورة بالندب وماتت روحي في ثنايا صدري معها.

لم يعلموا أنِّي قُتلت اليوم بسببهم، ولم يشعروا بمدى خيبتي الآن، رغم أنّي اعتدتُ الخيبات لكن خيبتي الآن مُختلفة كثيرًا عن سابقتها؛ فهي الأخيرةُ لأنَّ لا أملَ لي بعدها.
ثمَّة آمال تكسر، وثمَّة آمال تتلاشى، وهناك آمال تمهد لآمال، وبالمقابل ثمّة آمال تكون مقابر للآمال اللاحقة ولكلِّ ما سبق من آمال، وكانت طفلتي هي أمل آمالي كلّها، كانت دافعي وسببي لمواصلة الحياة، فإذ بهم يجهضون هذا الأمل.

عدتُ إلى المنزل وأنا في أوجّ وجعي، وذروةِ ألمي، وقمة بؤسي ويأسي، أجرُ أذيال خيبتي وأُداري دموع عينيّ التي لم تجف، ولن تجفَّ؛ ففيهما حزن لا ينضب، فيهما ذاكرة، والذاكرة لا تموت إلَّا بموت الشخصية، ذاكرةُ رؤيتي لطفلتي، ثُمَّ فقدانها.
تمضي الأيَّام بعدها وأنا أنظرُ إلى الفراغ، بأعينٍ لاوجود للحياة فيهما، ولا تُمت لها بأيّ صلة، أصبحتُ أعيش لأن هذا وفقط هو ما عليّ فعله.

بعد مرورِ أشهرٍ دخل عليّ أخوتي بصحبة زوجي الذي طالبهم بإعادتي له، فعدتُ وأنا مغلوبةٌ على أمري، عدتُ وكأنَّه لم يحدث شيء، وكأنَّهم لم يقتلوا حياتي ولم يفتتوا قلبي، لم يكن منِّي سوى الخنوع لهم؛ فلا مجال للرفض أو الاعتراض والتمرُّد، أبكي لأنَّني للمرة المليون، تخيب توقعاتي وتتفاقم الأحزان، كلّما آملُ في الحلم والأمان، أجدُ نفسي في دوامة الألم العميقة، أبكي لأنّني للمرةِ المليون وأحلامي تسهبُ في غياهبِ الوجم، تبخّرت آمالي في سماء الأوهام، وظلمتني الحياة دون أيّة رحمة وشفقة، أشيخُ وأستعبر وحزني يغمرني، فأين الحياة وأين السهل؟ أصبحت الحياة كالمرارة، تعولُ دموعي وتجرفني إلى بحر من الأسى والحسرات، فهل يا تُرى ستأتي أمواج الفرح لتغسل هذه الآلام والأحزان؟!

خرجتُ مِنَ المنزل، نظرتُ إلى تلك السُّحب التي تملأُ السماء، وتُنذر بسقوط المطر، كانت مليئةً بالحُزن والكآبة، شعرتُ بأنَّها تُريدُ مواساتي، وكأنَّها ستبكي في أيّ لحظة لتشاطرني الدموع، أخذتُ نفسًا عميقًا ثُمَّ

أخرجتُ زفيرًا ساخنًا، يُخرج من صدري الذي التهمته النيران، التي لو أخرجت زفيرًا لأحترق الجميع أمامي.

عدتُ إلى منزل "غيث" أو كما يُقال لي "زوجكِ"
على الرغم من أنَّ هذا اللفظ تبرَّأ منه ولا يمتُّ للزواج بأي صلة؛ فالزوجُ هو السند والعون والحب ووفاء وتضحية، أما هو فكان خاذلًا وعدوًا وحاقدًا.
تمرُّ الأيَّام مرور النار في الهشيم، أضرمت فيه نار عظيمة لن تنطفئ، ولم يكن الحظ حليفي البتة، عدتُ إلى العزلةِ عن العالم وامتلأت ساحتي بالحروب؛ ففي يوم مظلم قبيح استيقظتُ في الصباح لأجد المنزل خاوٍ من أيّ أثر للحياة، لم أستوعب ما يحدث، فقد رحل الجميع وحزموا أمتعتهم وحزبوا جميع أغراضهم، وحين حلّت الظهيرة جاء أخوتي، إليّ وهم يَصرخون، ويشتمون فأخذوني من المنزل بل جروني جرًّا، ككلبٌ ضاع عليهم ووجدوه للتو!

لم أفهم سوى سؤالهم: أين هم؟! إلى أين ذهبوا؟!
فلم يقوا لساني على النطق سوى بكلمة "لا" لا أعلم!

لم أكن أعلمُ ما الذي يجري، سألتُ فقط:
لِمَ أنتم هنا؟ وأين الجميع؟ هل حدث شيء؟
يُجيبني أحد أخوتي قائلًا: نعم يا زوجة المُجرم لقد قام زوجك الخبيث بقتل أخيك وها هم لاذوا بالفرار وأنتِ لا تعلمين.

ثُمَّ أخذ يرمي عليّ من الكلمات مُغيرًا عليّ حتّى اغتسلت روحي بكدر تلك الكلمات واكتست عليه ملامحُ وجهي، وانتصبت تلك النظرات الخاطفة منه بطعناتٍ على صدري، قائلًا بعدها: أنتِ وجه شؤمٌ علينا جميعًا، ليتكِ لم تخلقي!

نعم ليتني لم أُخلق فحين خُلقت نادى منادٍ: "صبوا لها كأس العذاب؛ فإنّه قدرها ورفيق لها" عاد الظلام يُخفي ملامح السلام في عالمي.

توالت الأيَّامُ وهي تقدم لي الصدمة تلو الأُخرى!
مقتلُ أخي، وثُمَّ وصول ورقة طلاقي، واليوم حملي الذي لا أُريده!

لذا أرجوكِ أُريد إجهاضه لم أجرؤ على فعلها، فهل لكِ أن تفعليها؟
أرجوكِ! إنّي أتوسلُ إليكِ أن تفعليها.
سألتها: ولِمَ تستبقين الأقدار؟ رُبَّما يتغيّر أخوتك، أو قد يكتبُ الله لكِ الأفضل!
فصرخت بصوتٍ يكاد يختفي لشدّة بكائها: ماذا لو لم يتغيّر القدر؟!
ماذا لو كان الحزنُ هو قدري؟!
ماذا لو كان العذابُ رفيقي؟!
ماذا لو قُتل مثل أخته؟!
ماذا لو كانت فتاة؟!
ماذا لو كانت فتاة وقُدر لها العيش وذاقت العذاب ذاتهُ؟

لا أُريدها أن ترى ما رأيت، هي الآن بلا أب وأنا فتاةٌ مثلها لا حول لي ولا قوّة، وهذا أوَّل مراحل عذابي، وهي الآن تخطوها؛ لتحذو حذو مصيري، أرجوكِ ساعديني لنوقف هذا العذاب.
خاطبتُها برفضٍ: لن أُساعدكِ في إزهاق روحٍ بريئة لخوفك من اللَّامعلوم؛ فأنتِ تخافين المجهول الذي لم يحدث، تخافين مستقبلًا لا تدرين محتواه وفحواه.

سقطت "غيم" على الأرض وبدأت بالصراخ وهي تقول:
- إذن فلتعلمي أنّي نذرتُ بأنّ هذا هو يومي الأخير، ولتدفنوني بثيابي؛ فقد جاهدتُ طيلة حياتي واليوم أقتلُ بسيف حُزني، فلا منقذ لي من عذابٍ صار وشمًا لن تُغيّره الأقدار.

لم أحتمل المنظر فجثوتُ واحتضنتها وجهشتُ بالبكاء لفرط حُزني وتأثري، فمهما حكيتُ عن الألم الذي يختلجني لن يساوي شيئًا أمام

حُزنها، أخذتُ أربتُ عليها حّتى استكانت وتوقفت عن البُكاء، أخبرتها:
ماذا وإن كانت فتاة؟
أليس الله ربّها؟
ألم تسمعي قصة سيدنا موسى حين رباه الله في بيت عدوه بل ويسر له حبّهم، فقط أخبري الله بما في قلبك هو يعلمُ عذابك وهو مُنقذك وحده، إن كُتبت لها الحياة فستحيا، وإن تجرعت العذاب وبلغ الحزنُ فيها ما بلغ، ستكون مثلك قويّة لا تهزم.

تقاطعني قائلة: وهل أنا قوية؟!
أُجيبها: أنتِ أقوى ممَّا ترين، فيكِ عزمُ الرجال وصلابتهم، فصبرك فاق الحجارة في صلابتها، وصمودكِ أشدُّ من الجبل، حبّكِ لطفلتك أنقى من قطراتِ الندى.

أنتِ حقًّا قويةٌ وشُجاعة، فعلى الرغم من كل ما يحدث ما زلت هُنا، رغم أنَّكِ أردتِ الانعواج لكنَّكِ لم تفعلي، ثُمَّ إنّني أتمنى أن تكون فتاة،

نعم... أتمنّى ذلك لتكون غيمةً ماطرة تروي روحكِ حُبًّا وجمالًا وبراءة وتنيرُ لكِ كالشمسِ، تبدد ظُلمة عالمك، ولتحتضن كُل ما تملكين ولتُكمل نقصك ولتأزر وحدتك، نعم... على الرغم من أنَّها فتاة إلّا أنَّها ستعوضك وستكون أُمًّا وأختًا وصديقةً لكِ، ستكون قوتكِ نخرك سندكِ عزمكِ وعزتكِ؛ فالله لا يقدر شيئًا يُضرنا ثُمّ إنّه لن يُكرر مأساتك مرةً أُخرى، فلتحسنِي الظنَّ به، ليحسنك الجزاء وستقفين وتبتسم لكِ الحياة، فلا عبوسٌ دائم ولا حُزنٌ مستقر، ثُم إنَّ الحُزن لا يُناسب جمال ثَغرك، ولا يُليقُ بجمال عينيكِ، ابتسمي فأنتِ أحقُّ بالابتسام.

احتضنتني "غيم" وذهبت وعلى شفتيها طيفُ ابتسامة كإشراق الشمس بعد عاصفةٍ دامت طوال الليل، وضعت يديها على بطنها، تتفقدُ جنينها، وكأنّها تُخبره: لا تقلق، فالله لن يتركنا، إنِّي معك دائمًا.

تمّت.

صدحَ صداها حتى جلجل أرجاء العيادة وهي تهتفُ قائلة: "أرجوكِ هلْ لكِ أن تُساعديني كي أجهضه، فأنا خائفةٌ من أن يُقتل أمام عينيّ كما حدث مع إخوته سابقًا!"

غدير عبد الكريم العقيلي

نعمة الخالد لتصميم أغلفة الكتب
@n_b_cover | nc_alkhalid